هيكل ادب

Le temple d'Adab.

(تابع لما قبله)

اما لباسها ففي غاية البساطة والحشمة . بخلاف ماذهب اليه فريق من المؤرخين في تهتك المرأة البابلية في الهياكل وعلى ابواب المعابد . وفي اسفل الاناء خطوط متموجة تشبه الموج وهي تمثل الماء او الغمر .

وفي الجهة اليمنى من مقدم الزورق كتابة مؤداها : ان اورين بن اور أهدى هذا الاناء الى إلهته لكي تحفظ حياته . وبعض تلك الكتابة مسطور بخطوط مستقيمة . وبعضها بصورة مسمارية ترتقي الى عهد دنجي . وفي طرفي الاناء ثقبان صغيران يسلك فيهما خيط لتعليق ذلك الاناء في الهيكل . ويظهر ان هذا الزورق قدمه احد النوتية هدية للهيكل عربون حمد وشكر على نجاته وزوجته من الغرق كما وقع مثل ذلك في ايامنا لجماعة من الملاحين فعلقوا بعد نجاتهم رسم السفينة الغارقة ووضعوه في كنيسة مرسيلية الكبرى (١)

وقد ورد في الجزء الثالث من كتاب رويال ريدر ص ١٥٦ — ١٦٠ بعنوان « زورق فرسي » اي مصنوع من الخيش ماوقع لسبعة من النوتية الانكليز قبل نحو مائتي سنة . فان نفراً من لصوص البحر (القرصان) اسروهم وحملوهم الى الجزائر من بلاد المغرب في افريقية فقضى اولئك المنكودو الطالع في الاسر مدة خمس سنوات قاسوا في خلالها من صنوف العذاب والهوان ما حملهم على ان يفضلوا الموت على حياة الذل والمسكنة . وفي الاخير عقدوا النية على مغادرة الجزائر مهما كلفهم ذلك من الاخطار والمشاق . فصنعوا سراً قارباً من الخيش وطلوه بالزفت والقار . ثم انزلوه في الماء ليلا وهموا بالهرب . وما كان اشد اسفهم لما حققوا انه لايسع سوى خمسة منهم . فالقوا القرعة وتخلف اثنان منهم بعد وداع تتفطر له الاكباد حزناً . ويتقطع نياط القلوب جزعاً . ثم ابحروا

١) يسمى او ادب المفقودة ص ١٤٠

ووجهتهم بلاد اسبانية . وكان زادهم قليلا من الخبز وقنينتين من الماء العذب وبعد سفر دام بضعة ايام ، كابدوا في اثنائها من الاهوال والنكبات مايعجز القلم عن وصفه . وصلوا جزائر مينرقة وهم على آخر رمق من الحياة لشدة ما اصابهم من الجوع والعطش والتعب . فاكرم مثواهم الاسبانيون ورثوا لحالهم وامدوهم في الحال بطعام وشراب ولباس وزودوهم بكل مايقوم بأودهم ثم وضعوهم في احدى سفن ملكهم ووجهوهم الى انكلترة بلادهم وقد حفظ سكان جزيرة مينرقة ذاك الزورق المصنوع من الخيش ، ووضعوه في كنيستهم الكبرى ذكرى لنجاة اولئك الملاحين الانكليز الذين نجوا باعجوبة من اهوال البحار بذلك القارب الصغير وقد حفظت اضلاعه وقاعدته من التلف مدة من الزمن ، واخذ الرحالون يؤمون تلك الاصقاع لمشاهدة صقل ذاك الزورق القديم بعد الحادثة بأكثر من مئة سنة ، فهذه الواقعة تؤيد بأجلى بيان ماحدث للملاح البابلي وزوجته التقية وايداع رسم زورقهما احد هياكل ادب .

وفي الخامس من كانون الثاني سنة ١٩٠٤ استؤنف الحفر بعد ان توقف بضعة ايام من جراء النزاع القائم بين شيوخ تلك المنطقة . فكان كل منهم يدعي ان موقع بسمى ملكه . وقد عثر النقابون في ذلك اليوم في الطرف الشمالي الغربي من قاعدة الهيكل على رأس تمثال صغير منحوت من الحجر الابيض يماثل التماثيل المكتشفة في تلو ونفر وكان رأس ذاك التمثال اصلع . ووجهه مستديراً امرد ويرتقي عهده الى السومريين . ولا يتخطى عصر جوديا ملك تلو . ووجد المنقبون في اليوم التالي ٦٥ صفيحة من الآجر وبينها قطع وطائفة من الجرار الصحيحة وكل هذه الآثار اكتشفت في ارض الطبقة السفلى من الهيكل .

هذا وفي ذات يوم بينما كان احد المعمارين يبحث عن آجر للبناء عثر تبعاً على بئرين بالقرب من سفح الرابية الرابعة . وكانت اعضاد احداهما مطوية بالآجر المربع (الطابوق السلطاني) وعلى كثير منها اسم اور انجور وكتاباته . وكانت البئر الاخرى مطوية بالآجر المسنم . ويحيط بها دكة مبنية بالآجر ايضاً ، ووجد الحفارون في الرابية الاولى بناء عظيماً . وفي انقاضه صفائح من

الآجر وتماثيل وآنية من الخزف . والذي ابهر انظارهم وافاد المؤرخين فائدة تذكر ، عثورهم في الهيكل على قطعة صغيرة متجعدة من المعدن الاصفر ، وبعد ان نظفت وصقلت عادت الى رونقها الاول ، فظهرت عليها كتابة بديعة طولها اربعة عشر سنتيمتراً في عرض خمسة سنتيمترات ، تشتمل على ستة اسطر ، وتبدأ بهذه الكلمات : « نرام سن ملك اكد » .

كان نرام سن بن سرجون العظيم ، احد الملوك الذين اعادوا بناء هـذا الهيكل ، وقد وجدت تلك الشـذرة الذهبية بجوار قبر قائم في غرفة صغيرة مربعة الشكل . ويرتئي فريق من الاثريين ان نرام سن دفن في الهيكل ، وذلك الموطن موضع قبره . وقد فتحه لصوص الآثار وسلبوا كل محتوياته ، ولم يهتدوا الى هذه الكتابة المسطورة على تلك الصفيحة الذهبية المقطوعة من صفيحة اكبر منها ، لان اطرافها غير المستوية تدل على انها نزعت بعنف من تمثال كانت معلقة عليه لتدل على اسم صاحبه ، أو لعلها كانت بمثابة مئزر أو رداء ، يستر ظاهر جسم ذلك التمثال .

وبعد ايام قلائل رأى الفعلة قريباً من ذلك المدفن قطعة اخرى من الذهب اتمت طرفاً آخر من الكتابة . وكان مطبوعاً عليها بضعة اسطر بخطوط متآزية وهي تشير الى انها كانت قد اتخذت لغرض التجمل والزينة .

وقد صادف المنقبون كثيراً من الحلى الذهبية والحجارة الكريمة في قبور البابليين ، ومدافن ملوكهم ، ولكن معظمها — إلم اقل كلها — كان غفلاخالياً من الكتابة . اما هذه فتعد فريدة في مادتها ، وحيدة في نوعها . نعم وجد الاثريون في خرائب خرسآباد (خرساباد) قطعاً من الذهب ، عليها كتابات ونقوش ولكن ليس في بابل .

ووجد احد الفعلة من البنائين — حينما كان يبحث عن آجر للبناء في السهل الواقع في اسفل الرابية السادسـة — خابيتين كبيرتين « راقودين » من الخزف ولكل منهما جوف واسع ، وعنق صغيرة جداً بصورة غير مألوفة .

وكانت الخابيتان قائمتين الواحدة بجنب الاخرى ، ومثبتتين في الارض واحداهما اصغر من الاخرى قليلا . وكان من الامر الهين رفعهما وافراغ مافيهما

ولكن حينما رفعت احداهما من موضعها تكسرت كسراً عديدة وفي الخابئة الصغيرة كان رماد جثث محرقة . وقطع من العظام الدقيقة واثنا عشر صحناً صغيراً عميقاً ذا شكل قديم جداً وقطعة من الآخر .

وقد ظهر بعد التحري والتدقيق ، انهاتين الخابئتين الضخمتين اتخذتا مدفناً لرماد الجثث المحرقة للاسر النبيلة ، ووجد ايضاً في تلك الصحون العميقة رماد جثث محرقة لافراد ممتازين . فمن هنا يتبين اجلى تبيين ان عادة إحراق جثث الموتى ، كانت مألوفة وشائعة عند سكان العراق في ذلك الزمن البعيد . والامر الذي استرعى الانتباه بنوع خاص وجود جثث محرقة في موضع آخر وقد نسقت الواحدة بجنب الاخرى وذلك تحت سطح الارض .

وصادف المستر وولي الاثري منذ نحو سنتين مدفن ملك في اور ، ووجد تسعاً وخمسين جثة من رجال ونساء ، دفنوا احياء بارادتهم ، ليرافقوا ملكهم في العالم الآخر ، ويصبحوا افراد حاشيته في مملكته الجديدة ، كما كانوا على الارض . (راجع لغة العرب ٨ : ٧٨)

وصف الهيكل

كان الهيكل يعد عند السمريين ، والبابليين ، والاشوريين ، بؤرة حضارتهم وقبلة خاصتهم ، وعامتهم . وكان الناس على اختلاف درجاتهم ، وتفاوت مشاربهم ، يحجون المعابد ، والمساجد ، والهياكل ، المرصودة لعبادة الآلهة . ويقدمون اليها هداياهم النفيسة ، وآثارهم الثمينة . ففي هذه الاماكن المقدسة كانوا ينصبون تماثيل ملوكهم ، ويجرون الحفلات الدينية ، ويشيدون حولها قصورهم ، ودور اغنيائهم ، ويقيمون اسواقهم ومخازنهم ، ويبوت تجارتهم واهراء غلاتهم ، لما لها من الدرجة السامية في نظر الكهنة والاشراف ، وسائر المتعبدين من السوقة .

وكان الهيكل كثيراً مايقام على ضفة نهر ، او مصب ترعة ، لان الفروض الدينية ، تلزم احياناً رؤساء الهيكل ان ينقلوا تماثيل الآلهة الضخمة على اكلاك أو اطواف (١) من مدينة الى اخرى ، ويطوفوا بها حينما تنتشر في البلاد

١) لفظة كلك سمرية بابلية مبنى ومعنى ، راجع تاريخ وآثار بين النهرين لمؤلفه د . كميل طومسن ص ٨ المطبوع سنة ١٩١٨ في بغداد .

امراض شديدة الوطأة ، تحصد نفوس السكان ، وتفتك بهم فتكا ذريعاً لاتهاب بطش ملك ، ولا تخشى رقية كاهن ، ولا ترحم شاباً او شابة وان غض اهابهما .

انبأتنا الآثار المكتشفة حديثاً بان تخطيط الهياكل وهندسة بنائها يكاد يكون واحداً . فالمنقبون عثروا على طائفة صالحة منها ، وكلها مشيدة على طرز متماثل . فانها تشتمل على برج يتألف من ثلاث الى سبع طبقات أو لفات تشبه مصطبات مربعة تقوم الواحدة فوق الاخرى . وفي قاعدة البرج ، اي في طرفه الاسفل يقوم موضع تماثيل الآلهة المقدسة ، ومخادع الكهنة وهـذا الوصف ينطبق بنوع خاص على هيكل ادب قبل ان عمات في انقاضه معاول الحفارين .

الهيكل القائم في الرابية الخامسة

ذكرنا في فصول متقدمة ، وصف بعض هياكل بسمى ؛ عثر عليها الآثريون نهباً في الروابي التي اقيموا فيها . واما الآن فنبحث عن بضعة هياكل ، نقب فيها المنقبون ، فوجدوها قائمة بعضها على بعض ، والواحد على الآخر ؛ وقد وضعوا عماراتها وتاريخ تأسيسها ، والكنوز المذخورة فيها ، وبعضها انشيء في فجر التاريخ .

اكتشف الآثريون في تنقيباتهم التي قاموا بها عدة هياكل ، وكان اولها قائماً على ذروة رابية ، ولما ازاحوا ما كان من الانقاض رأوا برج هيكل ، ووجدوا الآجر الذي غشي وجه الجدار منقوشاً عليه اسم دنجي ملك اور (٢٣٥٠ ق.م) ولما ازالوا هذا الآجر عن موضعه ، القوا تحته آجراً آخر ، مسطوراً عليه اسم اور انجور ، وهو والد دنجي (٢٤٠٠ ق . م .) ولما امعنوا في الحفر ، عثروا على شذرات ذهبية ترتقي الى عهد نرام سن (٢٦٠٠ ق م .) وعلى آجر مربع الشكل من عهد « سرجاني سري » ، وهو سرجون الاول (٢٦٥٠ ق.م) وعلى هذا المنوال وضح وضوح الشمس في رابعة النهار ؛ ان الرابية التي نحن بصددها ، كانت تضم طبقات متعاقبة من الانقاض ، لان المنقبين كانوا كلما اوغلوا في التنقيب ، عثروا على انقاض متناهية في القدم .

حفر المنقبون في وسط الرابية التي تعلو نحو خمسين قدماً عن مستوى سطح الصحراء فشاهدوا بئراً قطرها نحو ثماني اقدام مربعة في طبقات عديدة من الانقاض ، ولما توغلوا في الحفر ، اكتشفوا الجدران ، وشظايا من الخزف

وغير ذلك من الآثار القديمة التي وقفتهم على تاريخ تلك الرابية ، حينما كان يقطن فيها السكان الاولون ، حتى عصرها الاخير ، حين هجرها اهلها واصبحت اثراً بعد عين .

ان البئر التي حفرها النقابون ، افصحت كل الافصاح عن الطبقات المتعددة وتاريخ بنائها ، واسماء طائفة من الذين بذلوا جهد استطاعتهم في تشييد معالمها ؛ واليك البيان :

وجد النقابون تحت آجر دنجي ، واور انجور ، وذهب نرام سن ، وآجر سرجون خمس عشرة آجرة ، طوبانة مخططة ؛ انبأتهم ان ملوكا كثيرين عاشوا قبل عصر سرجون ؛ وقد عادوا بناء الهيكل عدة مرات .

وكشف الحفارون تحت تلك الآجرات ، هيكلا مشيداً بالآجر الصغير الحجم ، المسنم ، يرتقي الى زمن اقدم من بناء الهيكل الاول . وقد تخلل الهياكل انقاض كثيرة ، فان الفعلة — بعد ان نبشوا بضع اقدام — وجدوا اكثر من اربعين قدماً من الردم تحت معاولهم . واذا شرعوا في حفر الهيكل المسنم الحجارة الفوا طبقة من التراب ، واخرى من الرماد ، وبدا لهم ان الرماد يدل على هيكل كان مبنياً من الخشب ، فالتهمته النيران . وعثروا بعد ذلك على جدار مبني بالطين ولما توغلوا في الحفر ، وجدوا قطعاً من حجر الكلس ، تشبه حجر البناء ؛ ويظهر انها بقايا هيكل كان مشيداً بالحجارة . وشاهدوا بين الاحجار مسماراً كبيراً من النحاس الاحمر طوله ثمانية واربعون سنتيمتراً ، وطرفه الغليظ ينتهي بصورة اسد رابض ورأسه قائم ، أي مستقر على يديه ، وذيله ممتد على المسمار ، الى جهة طرفه الدقيق ، وقد اخضر النحاس وماتت باليته ولا اثر للكتابة فيه . ويحتمل ان الكتابة محيت لطول مهدها . وقد سكب هذا الاسد احد فناني شمر وكان آية في الابداع والرونق .

ويذهب النقاب الاميركي بنكس ، الى ان هذا المسمار البديع يرتقي زمنه الى مابعد بناء الهيكل المسنم الآجر ؛ وقد دفن اتفاقاً في الانقاض حينما كان البناؤون يرممون الهيكل ، أو يعيدون بناءه ؛ وذلك بازمنة قديمة جداً . ولا يعرف على التحقيق الغرض من ذلك الاسد المصنوع بهذه الصورة الغريبة ؛

ويغلب على الظن ان طرفه الرفيع كان يثبت في آجر الجدار ، والاسد يظهر بصورة بارزة ويتخذ كدعامة ؛ ويحتمل انه كان يوضع في الهيكل لمجرد الزينة .

وبعد ان توغل النقابون في الحفر عثروا على قارورتين من الخزف واقفتة الواحدة بجنب الثانية ، واحداهما اصغر من الاخرى قليلا ، وشكلاهما واحد وهما منبسطتان وقطراهما كبيران جداً وعنقاهما صغيرتان بالنسبة الى ضخامتهما وكان حولهما دكة صغيرة مشيدة بالآجر المسنم ، وقد دفنتا في الارض ولا يظهر منهما سوى عنقيهما ، وكانتا مملوئتين رماداً . والآجر يدل على العصر الذي أحرقت فيه تلك الجثث واودعت هاتين الخابئتين . وكان كل ذلك في عصر الهيكل المشيد بالآجر المسنم ؛ فحفرت حفرة عميقة في هذه البقعة لهذه الغاية وقد ملئت تلك الحفرة تراباً لطول الامد .

هذا وقد تضاربت آراء المنقبين في من اودع هذين الراقودين . فذهب بعضهم الى انه رماد جثث كهنة الهيكل وسدنته . وقال آخرون رفات جثث نبلاء البلاد وعظمائها . وارتأى غيرهم انه رماد بقايا الملوك والملكات أو الامراء والاميرات ، أو رماد رجال ونساء ضحوا بحياتهم على قبر احد ملوكهم . وهذا كله حدس وتخمين لانه لم يقف احد على صفائح منقوشاً عليها اسماء تينك الخابئتين . ويحتمل انهما اقيمتا مقام مدفن مقدس للاولياء او للانبياء الذين نالوا شهرة واسعة في ذلك العهد القديم ، كما اشتهر في العراق بعض مراقد الائمة . وبات الناس يدفنون موتاهم بجانبهم للتبرك برفاتهم .

وبعد ان امعن الحفارون في التنقيب في تلك الحفرة عثروا على اناء مركب من كسر ؛ بيد انه اصغر حجماً من الخابئتين المار ذكرهما ؛ وفي عنقه شفتان مثقوبتان وضعتا للتعليق وتحت ذلك الاناء كان وعاء آخر صغير ويشبه الخابئتين المذكورتين . واخيراً بلغت معاول النقابين الى رمل الصحراء الخالص من الشوائب والانقاض على عمق ١٣ متراً و ٢٠ سنتيمتراً أي تحت آجر هيكل دنجي بثلاث واربعين قدماً .

ولما بلغ الحفارون مستوى الصحراء لم يعثروا على شظايا وشقف من آنية مكسورة ، لان يد الانسان الاول لم تصل هناك لتخلف آثاراً تدل على صاحبها

في ذلك العهد القديم : وعليه آثر النقابون ان يكشفوا هيكلا بعد هيكل ، وجداراً بعد جدار ، فوجدوا على سطحها وقممها انقاضاً وعاديات مسطوراً عليها انباء قديمة ، وفي انقاض هذه الهياكل اقدم الآثار التي خلفها ابن آدم العريق في الحضارة والعمران . فقد كانت الارض الواقعة تحت الردم مستورة بكسر خزفية واغلبها كبيرة جداً حتى استطاع النقابون ان يعيدوا تركيب بعضها ويظهر ان الصلصال الفاخر وضع باعتناء عظيم في قالب ، والقي في دولاب خزاف ، وشوي ، فاصبح آية في الاتقان والابداع . وصفائح تلك الاوعية رقيقة ولونها ضارب الى الحمرة الغامقة وهو لون الطين الطبيعي .

وقد حاول النقابون عبثاً ان يبحثوا وينقبوا في طبقات ارض الصحراء ، الوقوف على عاديات تنبئهم عن شعوب تلك الازمنة العريقة في القدم . فرجعوا بخفي حنين ، غير انه رسخ في اذهانهم ان صانعي تلك الاواني لم يكونوا اقواماً متوحشين ، بل بالعكس كانوا امة متمدنة استطاعت بسمو مداركها ان تخترع دولاباً لصنع الخزف ، وادوات لتسميق الصلصال ، ووضعه في اشكال ظريفة ، ونقشه وتزويقه ، ثم شيه في أتون ليصلب كالحجارة . وفي وسع ابن القرن العشرين ان يحكم حكماً قاطعاً على ان شعباً يتقن صناعته الى هذه الدرجة قد بلغ الى اسمى منزلة في عالم العمران ، واستنبط اموراً كثيرة غير هذه .

اذا رغبنا في ان نقف وقوفاً تاماً على عصر الخزف ، ومعرفة الشعوب والاقوام التي سكنت وجه الصحراء ، قبل ان مصرت وشيدت فوقها المباني والهياكل ، علينا ان نصعد اولا الى قمة الحفرة وندرس طبقات الانقاض المختلفة درساً دقيقاً لكي تكشف النقاب عن وجه الحقيقة ، ونتحقق الزمن الذي مرت فيه الاجيال قبل بلوغنا الى قلب الصحراء .

ان الآجر العائد الى دنجي ، واور انجور ، في الطبقتين المرتفعتين يعين زمن بناء قمة الرابية في نحو ٢٤٥٠ ـ ٢٣٠٠ ق . م . ثم ان ذهب نرمسن وآجر سرجون القائمين تحت الطبقتين يرجعنا الى قبل ذلك التاريخ بمئتي سنة والآجر المخدد المستطيل المنتمي الى خمسة عشر حاكماً او اكثر ، فانه سابق لعصر سرجون ويتجاوز عصر الهيكل المشيد بالآجر المسنم وتمثال الملك دا او دو (داود) بعدة قرون .

رزوق عيسى